محمد ﷺ

في مرآة الآداب العالمية

بقلم: أحمد فؤاد أمين
مصر

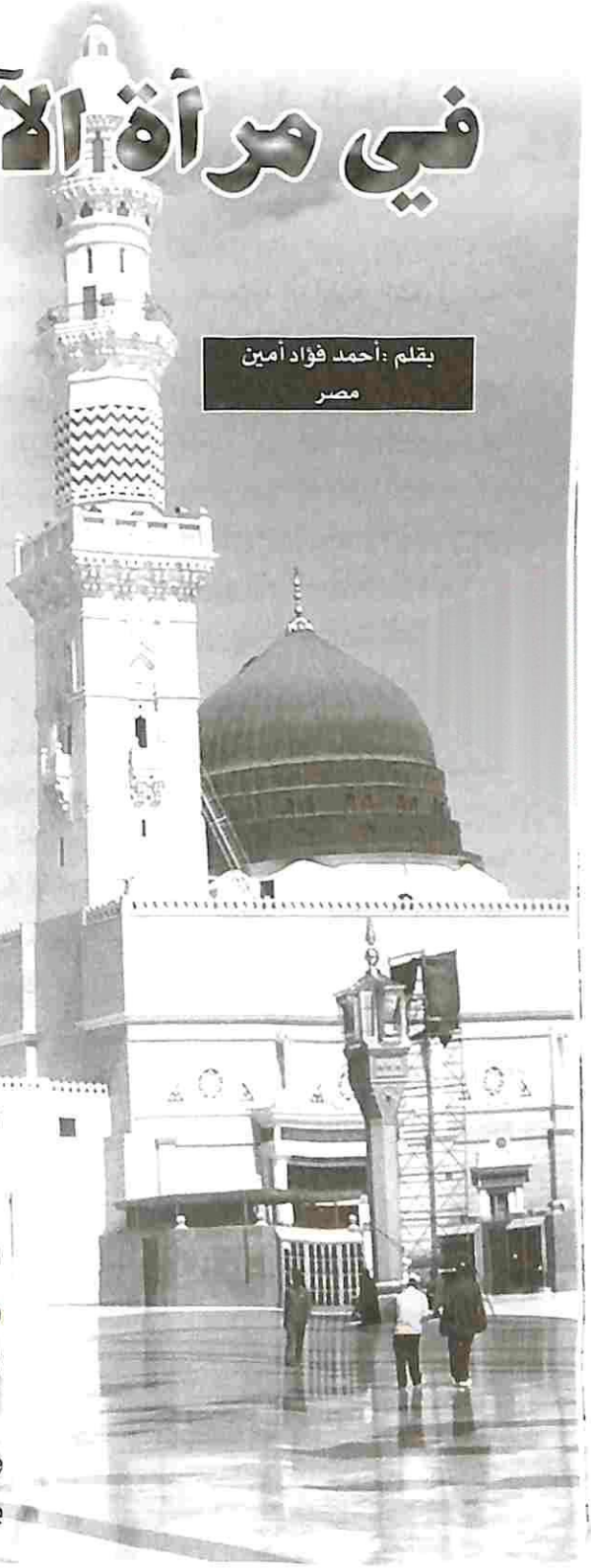

ظل الغرب يجهل صورة الإسلام الصحيحة لقرون طويلة، والتي شابها الالتباس وسوء الفهم أو الظن، واتسمت العلاقة مع الغرب خلالها بالعداء السافر والصدام الدامي، فورثت الحروب الكراهية للإسلام لدرجة أنه كان محسوباً على (الأربوسبه) التي كانوا يعدونها فرعاً مارقاً من فروع المسيحية المؤمنة بالتوحيد والرافضة للتثليث.

أما على أرض الأندلس سواء خلال ازدهار الخلافة الإسلامية أو اضمحلالها فقد شهد الإسبان بعظمة الحضارة الإسلامية ورقيها ودورها الكبير في إعادة إحياء التراث الفلسفي اليوناني ونقله للغرب، وعندما دارت رحى الحرب الصليبية شرع بعضهم في ترجمة القرآن الكريم للغة اللاتينية كونه دستور العرب الذين يحاربونهم، إلى أن عاد الملك لويس السابع عقب حملته الصليبية الفاشلة حاملاً بعض النصوص التي تشرح القرآن وتصحح صور الرسول ﷺ.

وخلال الحملة الصليبية الخامسة قابل القديس فرنسيس السلطان الكامل، وعاد إلى فرنسا ليقول: إن الإسلام دين منزل، ولا يعقل أن يكون بدعة. ولم يجرؤ أحد وقتذلك على الطعن في هذه الشهادة.

وتتوالى الحقب وتغزو الجيوش العثمانية الجرارة شرق أوربا وجنوبها، وفي ذلك الحين نشأ صراع فكري في أوربا بين الذين يربطون بين العثمانية والإسلام، وبين الذين ينظرون إلى الإسلام

بعيداً عن العثمانية، وهذه الخلفيات التاريخية تعد المصادر الأساسية التي نهلت منها الآداب الأوربية واستخدمتها في تناول صورة الرسول ﷺ والإسلام لقرون طويلة، بدءا من فترة الإصلاح الديني حتى ما بعد عصر النهضة، ومع طغيان العلمانية صار الأدب لا يلتفت للإسلام إلا في شذرات لا طائل منها.

الرسول ﷺ في الآداب الشرقية

أما في الآداب الشرقية فالأمر يختلف تماماً خاصة في الدول التي رسخ الإسلام فيها أقدامه مثل تركيا والهند وباكستان ومنها شعراء كبار تغنوا بصفات الرسول الكريم، وكتبوا فيه أجمل أشعارهم مثل الشاعر التركي سليمان شلبي، الذي يقول عنه دكتور حسين مجيب المصري الذي ترجم للعربية دواوين كثيرة من لغات شرقية مختلفة، إنه نظم قصيدة طويلة عنوانها «وسيلة النجاة» وتسمى «جوهرة الشعر التركي القديم، وذلك إثر مشادة كلامية مع أحد الشيوخ حول أفضلية الرسول محمد ﷺ على جميع الرسل، وهذه القصيدة تتميز بالسلاسة والمعاني الفياضة بعاطفة المؤمن نحو نبي الله ﷺ وتقول بعض أبياتها.

إن للدين عمادا من محمد
هو ذا المولد فاعرف منه أحمد
اسمعن كيف وافانا الرسول
بالأصول ونفسه أصل الأصول

ثم بدأ شلبي في سرد سيرة الرسول حتى وصل إلى حادثة الإسراء والمعراج.

ويقلب دكتور حسين مجيب المصري صفحات من دواوين الشعر الهندي ويختار لنا قصيدة للشاعر أحمد رضا خانة بعنوان «السلامية» لأنه يردد فيها بعد كل بيتين قائلاً: عليه الصلاة عليه السلام، ولهذه القصيدة شعبية كبيرة في الهند وباكستان وبنجلاديش، ويجتمع المصلون عقب صلاة الجمعة ليلقوا السمع إلى من يرتل أبياتاً منها.

محمد إقبال

وهناك شاعر آخر من شعراء الأردية هو ألطاف حالي له ديوان عنوانه «الإسلام بين مد وجذر» وفيه يعبر بشعره عن تردي أوضاع المسلمين في شبه القارة الهندية تحت نير الاستعمار الإنجليزي.

ويتطرق الحديث إلى محمد إقبال شاعر شبه القارة الهندية الكبير الذي نوى الحج لبيت الله الحرام فكتب يقول:

بمكة كان بالبشرى رحيلي
وبي فرح اللقاء مع الخليل
كأني الطير قبل الليل يمضي
ويبقى العش في الروض الجميل

بواكير اهتمام الأدب الأوروبي بالرسول ﷺ والإسلام

نعود إلى الغرب لنتلمس بواكير اهتمام الأدب الأوروبي بالرسول والإسلام التي يرصدها دكتور محمد عناني في الأدب الإيطالي ودرته «الكوميديا الإلهية» لدانتي وفيها ظلمُ الرسول والإسلام قائم على الجهل بعموم الدين الإسلامي، وقد أدرج هذا الشاعر في النشيد الثامن والعشرين في الجزء الأول من كتاب الجحيم شتائم صريحة في الإسلام والنبي.

ومع تصاعد الاهتمام بالشرق لخدمة النزعات الاستعمارية قديماً صدرت أول ترجمة للقرآن الكريم باللغة الانجليزية عام ١٨٣٤ لجورج سيل، فبهر القراء بجمال الأسلوب وبلاغة العبارة، وبعدها بدأت صور المسلمين تغزو الأدب الأوروبي، وما لبث أن تحول من العداء إلى مد تفهم وتعاطف عندما أشار أدوارد جيبون باستفاضة في كتابه «سقوط الإمبراطورية الرومانية»، إلى حقيقة التوحيد السامية في الإسلام، وأكد أن الغرب لو عرفها ما سقطت الإمبراطورية الرومانية.

وبرغم أن الشعراء الرومانسيين الإنجليز والفرنسيين والألمان استلهموا الصورة الدينية من الإسلام كونها أدباً خالصاً، فمع ذلك تأثر كثيرمنهم بعقيدة التوحيد مثل كولردج، وبايرون الذي اتصل اتصالاً مباشراً بالإمبراطورية العثمانية، وتعرف على حقيقة الإسلام ونال إعجابه، ذلك على النقيض تماماً مما قيل عنه من اتهامات بمعاداة الإسلام لاشتراكه في الحرب ضد الأتراك.

بايرون .. والرسول ﷺ

لقد كان بايرون يكن للأتراك والمسلمين أعمق مشاعر الاحترام، وفكر أكثر من مرة في اعتناق الإسلام، وكتب في ذلك يقول: لو قدر لي أن أومن لاعتنقت الإسلام، إن أكثر المشاهد جلالة هو منظر مسلم ينتزع نفسه من خضم الحياة ومسؤولياتها الملحة حين يؤذن المؤذن ليقف في خشوع بين يدي خالقه، وكأنه نسي العالم من حوله».

وشاعرنا له قصيدة ملحمة عنوانها «دون جوان» يقص فيها بالتفصيل كيف يتعرف دون جوان على العقيدة الإسلامية التي تلخصها له (ليلى) الفتاة المسلمة، كما يتعجب بطل الملحمة باعتباره إسبانياً متسائلاً: كيف خرج العرب من إسبانيا إذا كانت عقيدتهم بهذا الجمال؟ ويضيف أنه يرغب في الذهاب إلى الجنة التي تحدث عنها الرسول ﷺ . وعلى المستوى الفكري أعجب بايرون بأفكار الرسول الداعية إلى حرية الإنسان وتحرير العبيد.

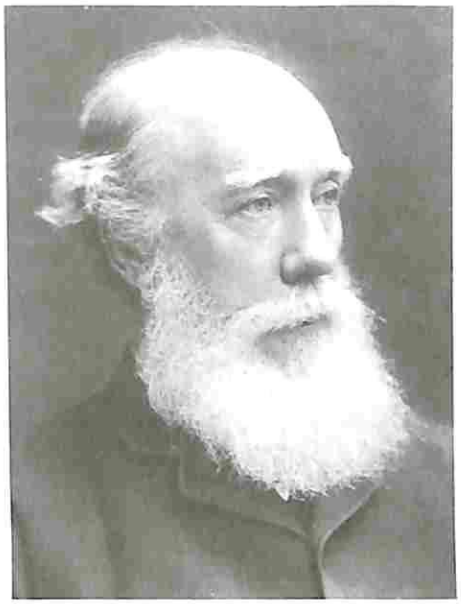

برناردشو

بايرون

برناردشو .. والرسول ﷺ

ويمضي بنا دكتور عناني لنتعرف على كيفية تناول برناردشو صورة الرسول ﷺ والإسلام، ويؤكد أن شو تشرب روح الإسلام، واستطاع أن ينفذ إلى دعوة المساواة التي تكمن في صميمها، ويبدو أن تلك الدعوة كانت تمثل نقطة الجاذبية الأولى لأدباء مطلع القرن العشرين، ولشو قول مأثور عن مدى تقديره للرسول إذ يقول: «إن محمدا يستطيع أن يحل مشكلات عالمنا وهو جالس يرتشف فنجاناً من القهوة» وقد أكد في مقدمة مسرحية «الرجل والسلاح» أن الإسلام هو دين المستقبل. وفي مسرحية «رجل الأقدار» قارن بين أطماع نابليون في الحكم والسيطرة وسماحة المسلمين. وعقب سقوط الخلافة العثمانية بدأ عهد جديد من الموضوعية في تناول الإسلام، وإن ظل بعض الأدباء أسيراً لتراث عصر النهضة والعصور الوسطى.

محمد ﷺ في رؤية توماس كارلايل

ألقى توماس كارلايل كبير المفكرين والناشرين الإنكليز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في جامعة لندن سبع محاضرات من بينها محاضرة بعنوان: «البطل في صورة محمد رسول الإسلام».

تحدث فيها عن رسول الله ﷺ على نحو لم يسبقه إليه كاتب أو مفكر غربي. وللمرة الأولى في تاريخ الفكر الغربي يرى الناس محمداً بن عبدالله كما ينبغي أن يروه..

وقد دحض افتراءات المتعصبين على الإسلام وعلى الرسول ﷺ، حول قضايا متعددة . ودافع عن صدق الرسول ﷺ في دعوته، وعن سموه في حياته ، وعن انتشار الإسلام.

فيقول في رده على اتهام الرسول ﷺ بطلب الشهرة والسلطان:

«ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلاّ الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان.. كلا وأيم الله ، لقد كانت في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة.. أفكار غير الطمع الدنيوي ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف لا وتلك نفس صامتة ورجل من الذين لا يمكنهم إلاّ أن يكونوا مخلصين جادين ...».

ويعبر توماس كارلايل عن حبه لمحمد ﷺ، معللاً ذلك بالشمائل الخلقية العالية التي يتمتع بها الرسول ﷺ، فيقول:

«وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي لا يعول إلاّ على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه: ولم يك متكبراً ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعا، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة».

وهكذا يسجل توماس كارلايل صفحة ناصعة عن الرسول ﷺ بقلم الإنصاف.

توماس كارلايل

جوته

جوته .. والرسول ﷺ

أصاب أمير شعراء ألمانيا جوته العالم بالدهشة عندما كتب في إعلانه عن صدور ديوانه الشهير «الديوان الشرقي للشاعر الغربي» أنه لا يكره أن يقال عنه مسلم، فقد نظم وهو في سن الثالثة والعشرين قصيدة رائعة أشاد فيها بالرسول ﷺ وحينما بلغ السبعين من عمره أعلن أنه سيحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن على النبي، ويرجع احتفاء جوته بالإسلام إلى تطابق أفكاره معه، وقد حظي القرآن الكريم بتقدير كبير لدى هذا الشاعر لذا يقول: إن أسلوب القرآن الكريم محكم سام مثير للدهشة وفي مواضيع عديدة يبلغ قمة السمو حقاً.

وهنا يحدثنا عبدالغفار مكاوي عن وجود أصداء قرآنية في مسرحية «جوتس فون برلينشجن» مما يدل على تأثر جوته أسلوبياً بالقرآن، ففي المسرحية يقول جوتس للراهب ماتين: إن الله سيهبكم سعة ورحابة أو سيوسع عليكم، وهي بدون شك صدى لقراءة جوته عن حديث موسى لربه وطلبه بأن يشرح الله صدره في سورة «طه».

ويقول دكتور عبدالغفار مكاوي: إن جوته قام بتأليف قصيدة المديح الشهيرة المسماة: نشيد محمد، عبر فيها عن مدى حبه للرسول، وتصور القصيدة النبي ﷺ بصفته هادياً للبشر في صورة نهر يبدأ بالتدفق رفيقاً هادئاً ثم لا يلبث أن يتحول في عنفوانه إلى سيل عارم مما يصور تعاظم قوة الرسول الروحية، ولكن للأسف لم يتم جوته هذا العمل. وسيظل جوته عنواناً للتسامح

والرؤية الثاقبة للإسلام والرسول وروحانية الشرق في غير تعصب، ويكفي أنه قال في الديوان الشرقي: وإذا كان الإسلام معناه السلام فإننا أجمعون نحيا ونموت مسلمين.

صورة النبي ﷺ في الأدب اليوناني

ويحدثنا الدكتور أحمد عثمان أستاذ الدراسات الكلاسيكية بجامعة القاهرة عن صورة النبي في الأدب اليوناني فيقول: إن الروائي العظيم «كازنتزلكيس» كتب عن الرسول في قصيدته المسماة «محمد» بوصفه أحد عظماء العلماء، ويفخر هذا الشاعر بأن بعض الدماء العربية تجري في عروقه، كما أشاد بالرسول أيضاً في كتاب عن مجموعة من الشخصيات العالمية، وفي روايته «المسيح يصلب من جديد» يتعرض «كازنتزلكيس» لشخصية التركي المسلم الذي يغزو جزيرة كريت، وهو هنا يفصل بوضوح بين الاستعمار التركي وصورة الإسلام الحقيقية حيث استمر الأتراك يحتلون اليونان لفترة حتى انتهى الاحتلال بالثورة القومية عام ١٨٢١م.

ولاشك أن إقدام محمد علي باشا القائد العثماني على احتلال جزيرة كريت رسخ العداء للإسلام، ولكن الأوضاع في الوقت الحالي اختلفت، حيث إنه لأول مرة يناقش اليونانيون فكرة إنشاء مسجد في أثينا، بعد أن كانوا قد أزالوا جميع المساجد إثر انتهاء الاحتلال التركي، كذلك تشهد اليونان حالياً اتجاهاً نحو الاستشراق وتعميق الفهم للإسلام بدليل ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اليونانية الحديثة بمبادرة يونانية وبإشراف مجمع البحوث الإسلامية.

رؤية الأدب الفرنسي للرسول ﷺ والإسلام

في القصص الشعبية التي تتحدث عن الحروب الصليبية في العصور الوسطى نجد أن هناك فرقاً بين صورة الإسلام في الغرب وصورة صلاح الدين الأيوبي، فهي تمجده لبطولته وشجاعته في حين أنها لا تشيد بالإسلام كديانة، هكذا بادرت دكتورة أمينة رشيد في حديثها عن رؤية الأدب الفرنسي للرسول والإسلام، وتضيف: إن هناك أيضاً فرقاً بين رؤية الغرب وقتها

فولتير

للدين ورؤيته لإنجازات المسلمين للعلوم المعرفية، ففي القرن الثالث عشر ذهب مجموعة من أعضاء إحدى المنظمات الدينية إلى أسبانيا لدراسة العلوم العربية ولترجمة القرآن إلى اللاتينية، بينما هاجموا الرسول بشدة.

وعلى الجانب الآخر في الأدب الفرنسي نماذج مستنيرة و إن شابتها بعض الأفكار الخاطئة الناجمة عن مصادر غير منصفة مثل فولتير الذي امتدح الرسول باعتباره أحد المشرعين الثلاثة العظام في تاريخ العالم، وإن كان قد أبدى رأياً مخالفاً للرأي المذكور في مسرحيته الشعرية المسماة «للأديان عامة» مما حال بينه وبين تقديم حكم منصف وعادل لشخصية الرسول، ومع ذلك نجد أن صورة الإسلام لدى فولتير قد استخدمت لنقد السلطة المركزية الفرنسية والكنيسة أيضاً، ومدى سيطرتها على الحياة هناك، وذلك بمقارنتها بسماحة الإسلام وترفعه عن الدكتاتورية، وفي القرن التاسع عشر بدأت مرحلة أكثر جدية في التعرف على الآخر المسلم للهروب إلى الشرق الروحاني الحالم بعيداً عن كآبة المدن الصناعية،ومن الذين عبروا عن هذا الاتجاه شاتوبيريان ولامرتين وفلوبير، وفي رحلة نيرفال إلى الشرق تحدث عن المسلمين،وقال: إن لهم ديانة ليست سلبية كما نتصور.

صورة الرسول ﷺ في الأدب الروسي

وكان بوشكين في طليعة الشعراء الروس الذين استلهموا السيرة النبوية في قصائده مثل قصيدة «قبسات من الرسول» وهي تتناول المرحلة المبكرة من النبوة وتتحدث عن تأملات الرسول في الكون والبحث عن حقيقة الوجود.

وترى في قصائد «قبسات من القرآن» المكانة الأكيدة

التي أحدثها القرآن في التطور الروحي لبوشكين، ويستهل القصيدة الأولى باقتباس عدد من الآيات وقد استحوذت معاني القرآن على اهتمام تولستوي. كما حظيت أحاديث الرسول بحبه وعنايته نظراً لوجود تطابق مع أفكاره وأقبل على التعريف بالإسلام في مقدمة كتبه لدراسة كتبتها شقيقة زوجته. ثم نشر كتيباً بعنوان «حكم النبي محمد» وفيها جمع الأحاديث التي تتعلق بالسعي لطلب الحلال والسعي للرزق والعمل. ومما قاله في النبي ﷺ:

«ومما لا ريب فيه . أن النبي محمداً من أعاظم الرجال المصلحين، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية . خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة، والسلام، وتفضل عيشة الزهد . ومنعها من سفك الدماء . وتقديم الضحايا البشرية . وفتح لها طريق الرقي . والمدنية . وهو عمل عظيم، لا يقوم به إلاّ شخص أوتي قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام».

تولوستوي

الرسول ﷺ في الأدب الأسباني

إذا كان المسلمون في الأندلس قد أبدوا تسامحا ارتسمت ملامحه في تعايش الديانات السماوية الثلاث على أرض الأندلس دون صدام، فإن الأسبان لم يعرفوه وتعصبوا للمذهب الكاثوليكي بعد سقوط الأندلس، واستخدموا محاكم التفتيش كأداة لحرق أو تعذيب كل من لايدين بالكاثوليكية، وقد نال المسلمين قدر كبير من لهيب التعصب، وإن جانباً كبيراً من التشويه لا يزال قائماً حتى الآن، ونجده في الكتب الدراسية المقررة على طلبة المدارس في أسبانيا كما يؤكد الدكتور حامد أبو أحمد، كذلك في كتابات خوان جويتصولو ومنها حوليات إسلامية، وقبله لوبي دييجا وكالديدون دي لاباري، وهي تنضح بالحقد والكراهية للإسلام والرسول، وفي دونكيشوت لسرفانتس صورة مشوهة للنبي، ووصف المسلمين بأنهم شعوب متدنية.

ولكن في منتصف القرن التاسع عشر، وما بعده بدأت حركة تصحيح مفاهيم وظهر مستعربون أخذوا يستعيدون الوجه الناصع للحضارة العربية بالأندلس مثل رامون منتديث بيدال وكوديرا وخوليان ريبيرا، وأكدوا أن أسبانيا كانت حلقة وصل بين الإسلام والمسيحية وأشادوا بدور ابن رشد في نقل ثقافة اليونان إلى الغرب، وللمستشرق ميجيل بلابسيوس كتاب مهم عن تأثر الكوميديا الإلهية برحلة المعراج للرسول ﷺ، وهو بمثابة أبلغ رد على افتراءات دانتي على الرسول.

وشهدت الحقب الأخيرة ارتداد جويتصلو عن أفكاره المغرضة التي ذكرناها في البداية التي تظهر عداء سافراً للإسلام، وتعبر روايته «المقبرة» عن أحلامه بأن تستعيد أسبانيا وجهها الإسلامي المشرق، وأبدى فيها كذلك رغبته في عودة المسلمين إليها، كما تفيض الرواية بالحب والتقدير للرسول العربي ﷺ.

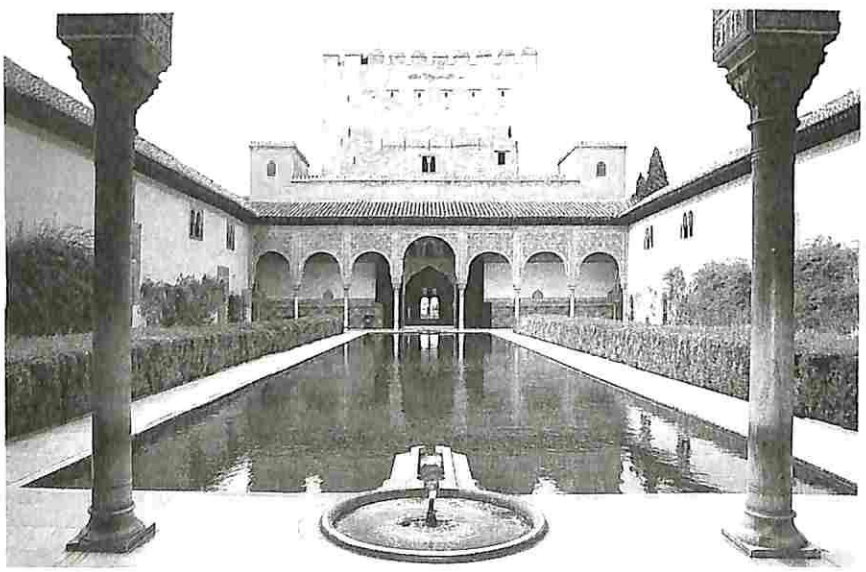

الرسول ﷺ في الأدب الأمريكي

ظل الأدب الأمريكي عاكفاً على أحلام وأوهام وحقائق الحياة في الأراضي الجديدة غير مبال بما يحدث خارجها إلا من شذرات شهدها القرن الثامن عشر كما تقول الدكتورة بثينة أبو المجد أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الأزهر، وهي صاحبة بحث مستفيض في صورة الإسلام في الآداب الإنجليزية.

وتتعرض لروايتين فقط صدرتا بالولايات المتحدة الأمريكية أولاهما عنوانها «جاسوس جزائري في أسبانيا» لبيتر ماروكو وتتحدث عن محمد الشاب الجزائري المسلم الذي ترك بلاده وذهب ليعيش في بنسلفانيا، وهناك يعجب بقيم بلده الجديد، ويبهر بديمقراطيتها ويصبح مناصراً لحقوق الإنسان، والرواية الثانية عنوانها « العبيد في الجزائر» للروائي روسونه، وفيها يعقد مقارنة بين نموذج الحكومة الاستبدادية في الجزائر والحكومة المتنورة في الولايات المتحدة الأمريكية.

محمد ﷺ الأول في المائة الأوائل

وألف الدكتور مايكل هارت كتاباً نشره في الولايات المتحدة الأمريكية عنوانه (المائة الأوائل) وقد أثار هذا الكتاب في حينه ضجة كبيرة هناك ما لبث أن انتقلت إلى أنحاء عديدة في العالم لكون المؤلف وهو غير مسلم قدم محمداً ﷺ على غيره من أبرز شخصيات الدنيا وعلمائها وفلاسفتها وأبطالها ومصلحيها وأصحاب الفكر فيها، في التاريخ القديم والحديث وجعله أول المائة الأوائل.

والمؤلف حاصل على عدة شهادات علمية عالية، في الرياضيات والعلوم والقانون والفلك، وقد عمل في مراكز أبحاث الفضاء والفيزياء التطبيقية وفي مراصد الأفلاك.

ذكر المؤلف في كتابه الذي ترجم إلى اللغة العربية أنه بذل جهداً جباراً في قراءة تاريخ العالم وحضارته بكل وجوهها واطلع على حياة وتراجم عشرات الآلاف من الشخصيات التي أثرت في حياة الأمم والشعوب

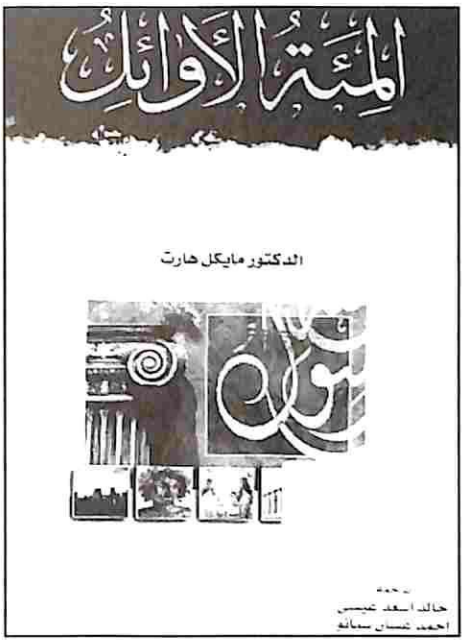

القديمة والحديثة، ثم فرز هذه الأسماء والشخصيات وظل يصطفيها ويختار الأفضل منها، حتى حصرها في مائة شخصية عالمية ثم رتب هذه المائة وفق معايير وضوابط موضوعية إنسانية حضارية حسب اجتهاده فكان أول هذه المائة هو محمد بن عبدالله ﷺ.

وبرر المؤلف اختياره لمحمد ﷺ وجعله أول الأوائل بكونه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح وأعظمه على المستويين الديني والدنيوي، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية وأتمها، وآمنت به شعوب بأسرها، ونشر ديناً عالمياً وأقام دولة بنفسه، في حين أن غيره من الأنبياء والمصلحين لم يفعلوا ذلك، بل إنه وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب وحد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، من خلال الأسس الدينية والتعاليم الدنيوية والأخلاقية والحضارية التي جاء بها، فكانت بداية الانطلاق الإنساني والحضاري في ذلك العصر وفي العصور اللاحقة. وأضاف: إن معظم الذين غيروا التاريخ ظهروا في قلب أحد المراكز الحضارية أو المدن الرئيسية المشهورة في العالم القديم، لكن محمداً ﷺ هو الوحيد الذي نشأ في بلاد صحراوية جرداء لا تملك ما هو معروف من مقومات الحضارة والتقدم، ولذلك استحق أن يكون أول المائة الأوائل ■